

المرأة في الشرق والغرب من خلال فكر اقبال

(في ذكراه الخامسة والعشرين بعد المائة)



دكتور حازم محمد احمد محفوظ

لا نعرف من بين أعلام الفكر والادب الاسلامي في أمتنا، من أولى قضايا المرأة اهتماماً كبيراً مثلما فعل المفكر والأدب الاسلامي الكبير العلامة محمد اقبال ان المطلع على آثاره الأدبية . من دواوين ورسائل و محاضرات و حوارات و مقالات صحفية و غيرها . باللغة الاردية الاسلامية، يتيقن من أنه كتب ما كتب و نظم ما نظم، بعد دراسة متانية مستوعبة للمنزلة السامية للمرأة في الاسلام . تلك المنزلة التي لم تبلغها و نلتها في أي دين سماوي أو مذهب غير الدين الحنيف . وبعد أن درس دراسة مستفيضة لحال المرأة في الشرق الاسلامي ووقف على ما آلت اليه في الغرب . خاصة في أوربا التي أقام فيها سنوات و سنوات . انه استقى فكره المعتدل في هذه القضية الهامة من الشرع الحنيف، وأبدى تعاطفه مع آمال و طموحات المرأة في المجتمع الاسلامي . و اظهر تأيده لمطالبهن التي لا تتعارض والدين القويم، بل سعى في جد بهدف بلوغ حقوقهن . ولسنا مبالغين اذ قلنا انه كان متحدثاً باسم المرأة المسلمة في كل زمان و مكان، مترجماً لآمالهن المستقبلية، متطلعا لغد افضل في ظل

مجتمع يرتضى الشرع الحنيف • ولم نصادف عند غيره من أعلام عصره ممن درسوا في أوروبا . الا فيما ندر . موقفا مشرفا مؤيدا لقضايهن ، كما نراه عند العلامة اقبال ، المتحصن بحضارة الاسلام •

ان المتصفح لآثار اقبال الأدبية الأردنية ، يتجلى له أن المرأة من أهم الموضوعات التي نالت جانبا واهتماما كبيرا في فكره ، ويراه وقد تطرق الى كل قضاياها الهامة ، والتي مازال تشغل عقولهن حتى يومنا الحاضر ، انه تحدث في قضايا : التعليم والعمل وحرية المرأة والمساواة والحجاب والأمومة والزواج والميراث ، وغيرها من المسائل الهامة في نظام المجتمع والاسرة في الاسلام •

ففي كتابه القيم " تجديد التفكير الديني في الاسلام " تطرق في حديثه عن الاسرة ، للرد على شاعر تركي ممن تأثروا بحضارة الغرب ، فنادى بالمساواة بين الرجل والمرأة ، خاصة في مسائل الطلاق والانفصال والمواريث • يقول اقبال : (١) " اني أخشى ان يبدو قليل العلم بقانون الاسرة في الاسلام ، كما يظهر أنه لا يفهم المعنى الاقتصادي لقاعدة التوريث ، كما جاءت في القرآن • فالزواج في اعتبار الشريعة الاسلامية عقد مدني ، وللمرأة ان تشترط عند الزواج أن تكون العصمة بيدها ، فتكتمل لها بهذا حق المساواة في الطلاق • والاصلاح الذي يقترحه الشاعر لنظام التوريث يقوم على فهم خاطي • وينبغي الاستنتاج من اختلاف الانصباء الشرعية ، أن القاعدة تفترض تفوق الرجل على المرأة ،

فمثل هذا الافتراض يكون منافيا للروح الاسلام ' اذ يقول القرآن : (ولهن مثل الذى عليهن) (٢)... والذى يعين نصيب الأبنه ليس أى نقص فيها ' وانما يتعين تبعا لما لها من فرص اقتصادية ' ومن مكان فى بناء مجتمع هى جزء لا يتجزأ فيه ... والبنه على حسب الشريعة تعتبر مالكة ملكا حرا لما تعطاه عند عقد الزواج من أبيها أو زوجها على سواء ... ان عبء النفاق على معيشتها فى حياتها كلها يقع على كاهل زوجها " •

وفى ديوانه "ضرب الكلیم" يتوجه بالنصح الى المرأة المسلمة ' داعيا اياها الى معرفة حقوقها فى الاسلام كما ينبهها الى اليقظة كى لا تقع فى شباك الدعوات التى أخذ يرددها بعض أبناء الشرق متأثرين بمقولات لأ دبائ وفلاسفة من الغرب ' فتفتن بدعوات التحرير والمساواة وما ينتج عنها من سفور واختلاط بالرجال ومشاركتهم فى كل اعمالهم ' مما يشاع فى مجتمع الغرب ' يقول اقبال : (٣)

"اننى اعتقد فى يقين أن (حرية المرأة) سُم يقدم على شاكلة نبات السُكر"
ويقول : (٤)

"ولتفشى بصيرة المرأة هذا السر"

ومع هذا النداء نجد العلامة اقبال راغبا أن تتوجه المرأة لنيل كل جديد مفيد من حضارة الغرب ' مما لا يتعارض والشرع الحنيف وفى نفس الوقت يذكرها بما آلت اليه المرأة فى الغرب ' كى لا تنساق وراء دعوات

باطلة • يقول اقبال : (٥)

• أنا ما شاهدت الفرق بين الرجل والمرأة (فى الغرب) ،

• ذلك جالس (فى الخلوة وتلك جالسة (فى الخلوة)

ويذكر "اقبال" المرأة برسالتها الاولى ويشيد بها ، حيث يدعوها الى

الاقبال على الزواج وانجاب وتربية جبل جديد ينماز بمقدرته على حمل

الأمانة • ويرى هذا أهم رسالة للمرأة فى المجتمع الاسلامى ، وما اعظمها

من رسالة • انه يدعوها على الدوام الى الاطلاع على حقيقة رسالتها فى ضوء

التعاليم الاسلامية • كما يوصى الرجال بمعرفة منزلة المرأة السامية ، وأن

عليهم فرض حمايتها واداء حقوقها وفى نفس الوقت يضع أمام المرأة فى

الشرق ، ما آلت اليه المرأة فى الغرب • انها تخلت عن رسالتها الاساسية ،

فلم تقبل على الزواج وانجاب الاطفال . فى الاغلب . وانسأقت وراء

دعوات هدامة ، نتج عنها فساد حل فى مجتمع الغرب •

يقول اقبال : (٦)

• هل هذا هو سمو المجتمع (لدى الغرب) ،

• فالرجل بلا عمل ، والمرأة خالية الحوض (من الاطفال)

ويقول : (٧)

• اذا كانت حضارة العرب (تعنى) موت الامومة ،

• فنتيجتها ، الموت للانسان •

ولا يمكن أن يفسر موقف "اقبال" من المرأة الغربية على أنه عدوؤها، بل أراد أن تحيا في عفة وكرامة، لأنها في فطرتها كذلك • انه يرى ان ما آلت اليه في مجتمع الغرب، يعود الى الرجل عندهم، الذي لم يقدر المرأة فيعرف منزلتها السامية • انها ليست سلعة تباع وتشترى من اجل متعة زائلة • يقول اقبال: (٨)

• اننى فى حزن دفين على ظلم النساء (فى الغرب)
ويقول: (٩)

• فى هذا الفاد (المستشرى) ليس هناك ذنب من قبل المرأة
• حتى القمر والنجم يشهدان على عفتها •
• فظهور الفساد فى مجتمع الغرب •
• يعود الى أن الرجل عندهم أبلة لا يعرف مكانة المرأة •

ويؤكد "اقبال" منزلة المرأة السامية فى فكره، بتخصيص قسما
بأكمله فى ديوانه "

ضرب الكلم " جعل عنوانه "المرأة "، وفيه سما بمنزلتها فوق نجم الثريا،
وأكد على أن كل الجمال فى الكون بسبب منها، بل الحياة كلها تنبض من
نغمتها • يقول: (١٠)

• ان صور جميع الكائنات ملونة بسبب من وجود المرأة،
• وقلب الحياة (ينبض) بسبب من نغمتها •

• وحفنة ترابها أكثر سموا من نجم الثريا

• وكل شرف وغزة در مكنون فى المرأة •

ثم نراه يشير الى المرأة فى حياته الخاصة ، ويبين أن لها أثر كبيراً
فى فلسفته ومؤلفاته ومكانته التى بلغها عن جدارة • يقول : (١١)

• ان وجود المرأة مشجع على شغف الابتكار ،

• وأسرار الحياة تنكشف فى دوام بسبب منها •

ويرد الفضل الأول الى أمه التى شجعتة على الانكباب فى طلب
العلم والاستزادة منه • يقول فى قصيدته : " ذكرى الأم " ضمن ديوانه
الأردى " رنين الجرس " : (١٢)

جعلتنى الأم فى ركب الزمان ذكرتنى ما الذى بالأمس كان

رببتنى وأناطفل صغير ذكرتنى وأنا ذلك الغرير

فلى العقل ولى رأى سديد وبما انجزت انى لسعيد

بك أنت صرت نجماً فى السماء أسراة الأسلاف تحظى بالسناء

بحبى لك دهرى قد نعمت وعلى رد الجميل قد عجزت

لك يا أمى حياة من ضياء ورحيل ما لبدر عن سماء

وحينما شارك " اقبال " فى مؤتمر المائدة المستديرة ، الذى

انعقد فى لندن عام ١٩٣١ ، لبحث مستقبل شبه القارة الهندية بعد زوال

الاحتلال الانجليزى ، انتهز هذه الفرصة وكتب مقالة بالانجليزية عنوانها

”النساء“ نشرت في العديد من الصحف اللندنية ، وفيها أشار الى مكانة المرأة ومفهوم الشرق والغرب في قضايا الحرمة والمساواة ، كما تحدث عن الحجاب واصفاً أياها بأنه علامة الوقار والا حترام ، وليس فيه ما يقلل من شخصية المرأة ومكانتها أو يعوق عملها . كما اشار الى تعدد الزوجات في المجتمع الاسلامي وحكمته ، ورد على من ينكرون ويخالفون ذلك في الغرب . (١٣)

هذا ولفت فكر ”اقبال“ المستنير في قضايا المرأة في الشرق والغرب ، بعض اديبات الغرب من اساتذة الجامعات ، فتأثرن به وأقدمن على نقل بعض تراثه . المنشور والمنظوم . الى لغات اوروبية . ومن هؤلاء نذكر المستشرقة البرفسور آنامارى شيميل Annemarie Schimmel التي نقلت ديوان جاويد نامه الى الألمانية ، وصدرت هذه الترجمة في ميونيخ عام ١٩٥٦ . (١٤) والمستشرقة الدكتورة ايما يروفينش Eva Meyerovitch التي نقلت الى الفرنسية رسالة الدكتورة التي تقدم بها ”اقبال“ الى جامعة ميونيخ بالمانيا عام ١٩٠٥ . وهذه الترجمة هي التي اعتمد عليها الدكتور حسين مجيب المصري في نقل الرسالة المذكورة الى العربية ، وصدرت تحت عنوان : ”ماوراء الطبيعة في ايران“ . (١٥) ثم نقلت ديوان جاويد نامه الى الفرنسية ، ونشرت ترجمتها في باريس عام ١٩٢٢ . (١٦) واعتنقت الاسلام بعد ترجمة هذا الديوان . (١٧)

أنت للأمة عنوان الشرف وبهذا فثراك قد هتف
 نلت هذا أنت حوراء الصحارى فجعلت السقى لكن بالفخار
 فى ثراك قد رقدت يا شهيدة وبذرات الثرى روح جديدة
 واذا التفتنا فى عجالة الى شعر اقبال الفارسى 'نراه يوصى الفتاة
 المسلمة بان تحتذى بنماذج من عهد النبوة أمثال السيدة فاطمة الزهراء
 والسيدة فاطمة بنت الخطاب * (٢٠) كما يضع نصب عينيها حياة
 الأميرة الهندية المسلمة "شرف النساء" التى تعلق بالقرآن الكريم أشد
 تعلق 'وأوصت بأن يوضع معها فى قبرها 'مصحفها و سفها * (٢١)
 وها فكر اقبال فى المرأة 'يأثر فى أدبيات الشرق 'فوجد عطية فيضى
 الهندية . المعاصرة لاقبال وقد جمعت بينهما علاقات متميزة تقول : (٢٢)
 "حينما نعقد الموازنة بين العلامة اقبال وغيره من الكتاب 'نجد اقبال
 ينماز عنهم بشخصية أدبية اسلامية نادرة * انه استقى فكره المعتدل فى
 كتاباته 'من تعاليم القرآن الكريم *"
 وحينما توفى " اقبال " رثته أدبية الأردية السيدة "بشير النساء" مؤرخة
 لعام رحيله بقولها: (٢٣) " لا مجد للأمة بدون اقبال " *

ولعل خير ما نختم به مقالنا المتواضع 'الاشارة الى اننا لم نجد
 "لاقبال " منظومات او أبيات تغزل فيها على الكيفية التى تشاهد عند الغالبية
 العظمى من الشعراء تلك الصورة التى لا تسمو بانسانية المرأة 'بل سخر

منظوماته وأقواله وكتاباتهِ النثرية في المرأة لبعثها و نهضتها من جديد •
 وصدى استاذنا الدكتور حسيب مجيب المصري حين انشد قائلا: (٢٤)
 فصيح أنت يالك من فصيح لذاك اخترت فن القول شعرا
 ولا ما قلت في وجه مليح ولا داعبت مثل المسك شعرا
 سئمت حديث هجر أو تلاق وما أرويت للمحبوب ثغرا
 كرهت شكاة وجد واشتياق وأحمدت الصبابة فيك جمرا
 وضيت الشعر لكن في نطاق به حققت للانسان خيرا
 ان اقبالا كان . وما يزال . مترجما لحضارة الاسلام الخالدة ، فيما
 يتعلق بالقضايا المعاصرة ، وفي طليعتها قضايا المرأة • ولسنا مبالغين في
 قولنا : " انه شاعر الاسلام الذي تغنى بحضارته الخالدة •

تحية الى روحه الطاهرة في ذكره الخامسة والعشرين بعد المائة

المصادر والمراجع والحواشي والتعليقات

۱. محمد اقبال، 'تجديد التفكير الديني في الاسلام'، ترجمه الى العربية: عباس محمود ط ۲، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ۱۳۲۱هـ/ ۲۰۰۰م، ص ۱۹۹: ۲۰۱.
۲. البقرة آية رقم (۲۲۸).
۳. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ط ۳، اقبال اکادمی پاکستان، لاهور ۱۹۹۵م، ص ۶۰۷.
۴. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ص ۲۰۷.
۵. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ص ۲۰۵.
۶. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ص ۲۰۵.
۷. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ص ۲۰۸.
۸. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ص ۲۰۹.
۹. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ص ۲۰۴.
۱۰. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ص ۲۰۶.
۱۱. محمد اقبال، 'كليات اقبال اردو' (ضرب كلیم)، ص ۲۰۹.
۱۲. محمد اقبال، 'المجموعة الشعرية الأردية الكاملة' (بدائع العلامة اقبال في شعرة الاردي)، ترجمها نثرا عن الشعر الردي: حازم محمد احمد محفوظ (دكتور)، نقلها الى الشعر العربي: حسين مجيب المصري (دكتور)، ص ۱۵۷، ۱۵۸، ۱۶۱) تحت الاصدار.
۱۳. للتفصيل انظر: محمد اقبال، 'طبقه نسوان' مقال مستخرج من مجلة مهك (الاردية) في عدها الخاص الصادر بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد اقبال، ص ۷ الى ۹.
۱۴. محمد السعيد جمال الدين (دكتور)، 'رسالة الخلود أو جاويد نامہ للشاعر والمفكر الاسلامي الكبير محمد اقبال'، ط ۱، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ۱۹۷۳م، ص ۱۹.
۱۵. حديث عبر الهاتف مع أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري، في مساء يوم الاثنين ۲۶ وللتفصيل راجع: حسين مجيب المصري (دكتور)، 'ماوراء الطبيعة في ايران لشاعر باكستان الاكبر محمد اقبال'، ط ۱، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ۱۹۸۷م، ص ۴۷.

١٦. محمد السعيد جمال الدين (دكتور) 'رسالة الخلود أو جاويد نامه للشاعر والمفكر الاسلامي الكبير محمد اقبال' ص ١٩.
١٧. حازم محمد احمد محفوظ (دكتور) 'محمد اقبال المصلح الفيلسوف الشاعر الاسلامي الكبير' ط ١، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩ م، ص ٥٨.
١٨. حسين مجيب المصري (دكتور) 'المرأة في شعر اقبال' بحث مستخرج من مجلة اقباليات العربية، في عددها الأول الصادر في أكاديمية اقبال الباكستانية، عام ١٩٩٢م 'لاهور'، ص ١٩٣.
١٩. محمد اقبال 'المجموعة الشعرية الأردنية الكاملة (بدائع العلامة اقبال في شعره الأردی)' ص ١٤٨، ١٤٩.
٢٠. حسين مجيب المصري (دكتور) 'اقبال والعالم العربي' ط ١، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٢٢.
٢١. لتفصيل انظر: حسين مجيب المصري (دكتور) 'المرأة في شعر اقبال' ص ٩٣ : ٩٦. حسين مجيب المصري (دكتور) 'في السماء' ط ١، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٢٤٢ : ٢٤٤.
- محمد السعيد جمال الدين (دكتور) 'رسالة الخلود أو جاويد نامه للشاعر والمفكر الاسلامي الكبير محمد اقبال' ص ٢٦٨ : ٢٧٠.
٢٢. مجلة مهك (الأردية) ص ٤٠٤.
٢٣. مجلة مهك (الأردية) ص ٣١٢.
٢٤. حسين مجيب المصري (دكتور) 'شوق وذكري' ط ١، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٧٦، ١٨٨.